الرحالة والجغرافي ابن سعيد المغربي

الأستاذ المساعد الدكتور
مجيد حميد شهاب
جامعة الكوفة / كلية الآداب

الرحالة والجغرافي ابن سعيد المغربي

الأستاذ المساعد الدكتور
مجيد حميد شهاب
جامعة الكوفة / كلية الآداب

الملخص :

ابن سعيد الرحالة الشاعر الاديب الجغرافي والمؤرخ اندلسي المنشأ والبيئة فهو علي ابن موسى بن محمد عبد الملك بن سعيد، ولد في مدينة غرناطة بين سنتي (605 و610هـ) في قلعة يحصب وتسمى قلعة بني سعيد أيضا وقد درس اللغة والادب والشعر على يد ابي علي الشلوبين وابي حسن الدباج وابن عصفور. لهُ مؤلفات تجاوزت الثلاثين مؤلفاً في مختلف العلوم: ويأتي اختيارنا الرحالة ابن سعيد كونه الف كتابين في الجغرافية وهما من أروع ما كتب وتأتي أهمية مؤلفاته في وصفهُ الواقع وصفاً دقيقاً كونه رحالة يستقر في المكان فترة طويلة، فيعرفه جيداً يسأل ويطلع على تاريخهُ ثم يكتب عنه. كما تكمن الأهمية العلمية لبحثنا في رفد طلاب الجغرافية والمكتبة الجغرافية ببحوث تفتقر إليها كون الرحلات تراث جغرافي وممن كتبوا فيها كانوا على اطلاع ودراية ميدانية وهم يتميزون بشمولية وللأسف فأن هذه المؤلفات لا زالت لحد ألان مخطوطات بمكتبة (الاسكوريال) في اسبانيا تضم تراثاً جغرافياً يترجم ولم يحقق منه إلا القليل، كانت اهتمامات أساتذة التاريخ في خروج هذه المخطوطات إلى النور من خلال تحقيقها اكثر من اهتمامات الجغرافيين مما يلفت النظر أن ابن سعيد عالم وأديب كتب في (الجغرافية والتاريخ والأدب والرواية والفقه) وكان ورعاً متنقلاً، واهم مؤلفاته في الجغرافية هو كتابه (بسط الارض) أو(كتاب الجغرافية).

(1) حياته :

(1)- 1- اسمه ونسبه وكنيته ولقبه:

هو علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد بن خلف بن سعيد بن محمد بن عبد الله بن سعيد بن الحسين بن عثمان بن محمد بن عبد الله بن سعد بن عمار بن يسار العنسي، يكنى بابي الحسن وهي ـ كما هو معروف ـ كنية تطلق على من يتسمى علياً في المشرق وهو من ضمن الالقاب التي كان يتيمن المشارقة باطلاقها مقرونة بلفظة ((الدين)) كشمس الدين وضياء الدين، ويظهر ان من يتسمى علياًَ ينال لقب ((نور الدين)) اذ لكل اسم لقب خاص من هذا النوع[1].

(1) - 2- حياته في الاندلس

مولده بغرناطة:

ولد بن سعيد المغربي ما بين سنتي (605/1208) و (610/1214) في قلعة يحصب (*)، درس اللغة والشعر على ابي علي الشلوبين وابي الحسن الدباج وابن عصفور وغيرهم من اشبيلة، ثم رحل الى المشرق في صحبة والده للحج، وتوفي أبوه سنة (640/1243) بالاسكندرية، فذهب ابن سعيد الى القاهرة واقام بها الى سنة (644/1247)؛ ووفد على مصر في ذلك الحين كمال الدين عمر بن محمد بن ابي جرادة ـ المعروف بابن العديم ـ فأضل به علي بن موسى وحبب اليه ابن العديم الرحلة معه الى حلب، وزار في رحلته تلك دمشق والموصل والبصرة وارجان، يقرأ على الشيوخ والفقهاء ويطلع على الكتب، ثم حج الى بيت الله الحرام وعاد الى مصر فالمغرب. وفي سنة (652/1254) نجده في تونس حيث طال مقامه فيها ودخل في خلافة اميرها ابي عبد الله المستنصر الحفصي (647 - 675/1249/1276)، ثم رحل الى المشرق مرة اخرى (666/1267) حيث ادركته المنية في دمشق سنة (685/1274) (٢).

لم يستقر ابن سعيد في بلده الاندلس بل رحل متنقلاً الى المغرب وتونس ومصر والشام والعراق والحجاز وظل حياته أخا سفر في اقاليم المشرق الى ان توفي في تونس، فقد تميز العصر الذي عاش فيه ابن سعيد القرن السابع باحداث جسام هزت العالم العربي الاسلامي، فقد سقطت بغداد عاصمة الخلافة العباسية سنة (656هـ)، وكأن النكب امتدت الى الطرف الغربي من العالم الاسلامي حيث اخذت عواصم الاندلس تسقط الواحدة تلو الاخرى، ومن سقوط طليطلة في القرن الخامس الى سقوط الحواضر الاندلسية الكبرى على يد الاسبان في القرن السابع، ففي سنة (636هـ) سقطت بلنسية وفي (633هـ) سقطت قرطبة، وفي سنة (641هـ) سقوط حُرسْية وفي سنة (643هـ) سقطت قلعة جيان الحصينة وفي سنة (646هـ) سقطت اشبيلة ولم يبقى في الاندلس للعرب الا مملكة غرناطة التي ظلت تقاوم الى ان لقيت مصيرها سنة (898هـ) (٣).

تلقى ابن سعيد علومه في مدينة اشبيلة ثم عاد الى مسقط رأسه سنة (638هـ)، قرر هو وأبوه السفر لأداء فريضة الحج، فغادر الاندلس وهو في الثلاثين من عمره وارتحل الى المشرق حيث ادى فريضة الحج(٤). رحل ابن سعيد الى القاهرة واقام فيها بعد الاسكندرية سنة (640هـ)، ثم قصد حلب ومنها الحجاز سنة (652هـ) ثم رجع قافلاً إلى بلاده بعد ذلك زار تونس وأقام بها عشرة سنوات في بلاد المستنصر الحفصي، ثم يبارح تونس ويعود مرة اخرى الى الشرق متجهاً الى ارمينيا فوصلها سنة (666هـ) حيث التقى هولاكو، وقد التقى في رحلاته تلك بكثير من امراء المسلمين وعلمائهم وكانت وفاته بدمشق سنة (685هـ) وان قيل انه توفي بتونس(٥).

(2) مؤلفاته:

خلف ابن سعيد ثروة ضخمة من المؤلفات بلغت ثلاثين كتاباً وصل أقلها الينا وضاع اكثرها، من تاليفه المرقصات والمطربات، والطالع السعيد في تاريخ بني سعيد و كتاب المغرب في حلى المغرب والمشرق في حلى المشرق [٦] وكتاب القدح المعلى في التاريخ المعلى[*] والغصون اليانعة من محاسن شعراء المائة السابعة وكتاب الجغرافيا في الاقاليم السبع الذي حذى فيه حذو الادريس في (نزهة المشتاق) واعتمد عليه اعتماداً كبيراً[٧] ويذكر ان له كتاب يسمى (المرزمة) يشتمل على الفوائد الادبية والاخبارية التي لا يعلمها الا الله تعالى[٨].

بلغت مؤلفات ابن سعيد ثلاثين كتاباً، كما تمت الإشارة، ذكر فيها صاحب (نفح الطيب) اثنتى عشر كتاباً في مواطن متفرقة من كتابه.

- (عدة المستنجر وعقلة المستوفز) ذكر فيه انه ارتحل من تونس إلى المشرق في رحلته الثانية سنة 666هـ. وقد ذكر ابن سعيد في هذا الكتاب قصة دخول التتار بغداد على يد هولاكو.
- (المقتطف من ازاهر الطرف) وهو من الموشحات.
- (الطالع السعيد في تاريخ ابن سعيد) وهو من الكتب المفقودة واسمه في الاعلان (الاطالع السعيد في تاريخ قلعة ابن سعيد) وهو من الكتب المفقودة[٩].
- (المحلى بالاشعار) ونقل فيه عن القرطبي المؤرخ المصري قصة بناء الخليفة الامر باحكام الله الفاطمي لعصر الهودج اكراماً لعشيقته البدوية التي كان يحبها ابن مياح ابن عمها.
- (ديوان شعر ابن سعيد) ويعتقد انه مفقود.
- (ملوك الشعر) ذكره ابن سعد وتحدث عنه [١٠].
- (النفحة المسكية في الرحلة المكية) ذكره صاحب النفح عن كتاب الاحاطة للوزير لسان الدين ابن الخطيب وجاء في النقل (وحج ثم عاد الى المغرب وقد وصف رحلته محموماً سماه بالنفحة المسكية في الرحلة المكية).
- (نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب) ذكر د. زكي محمد حسن مقلاً عن (ترومبيتر) ان هذا الكتاب نسخه مخطوطة في مكتبة توبنجن بالمانيا.
- (كنوز المطالب في أل ابي طالب) ذكره صاحب (المنهل الصافي) وهو مفقود. وهو في الادب.
- (حل الرسائل) وهو مفقود [١١].
- (الغراميات) ذكره ابن تعزي يروي في المنهل وفي (كشف الظنون) (بأسم الغرابيات) وتارة بأسم (الغرائيات) وهو نفقود.

- (ندة الاحلام في تاريخ امم الاعجام) ذكره صاحب خليفة في (كشف الظنون) طبقة اسطنبول سنة 1311هـ ان اسمه (لذة الاحكام في تاريخ امم الاعجام) وانه في النحو بمجلدين.
- (ريحانة الادب في المحاضرات) ضمنه حاجي خليفة وقال عنه انه (جمع بين عيون الاخبار، ومستحسنات الاشعار).
- نتائج القرائح، في مختار المراشي والمدائح) ذكره حاجي خليفة وذكر ان موضوعه هو ما اشتمل عليه العنوان وهو مفقود [١٢].
- (حيا المنحل، وجنى النحل) ذكره صاحب (صبيح الاعشى) في الجزئين الثاني والرابع عشر ولم يذكر موضوعه وهو مفقود.
- (تاريخ مرتب على السنين) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون.
- (الملتقط من السلك) من حلى العروس الاندلسية [١٣].
- (الادب الغعن) انفرد بذكره المؤرخ السيوطي في بغية الوعاط وهو مفقود.

١. (كنوز الأدب) ذكره ابن سعيد في (الغصون اليانعة) وذكر انه اختار فيه اشعر لبعض الشعراء الذين ترجم لهم.
٢. (روح الأدب) ذكره ابن سعيد نفسه في الغصون.
٣. (كنوز المعاني) ذكره ابن سعيد نفسه في الغصون.
٤. (كتاب الجغرافية) له مختصر في المكتبة الاهلية بباريس وقد تحدث عنه وعن كتاب اخر في البلدانيات د. زكي محمد حسن نقلاً عن كاميرير واماري والمجلة الايطالية في الدراسات الشرقية. وهو مفقود[١٤].

وينقل المقري في النفح اسماً لكتاب اخر يتفق في غرضه ومبناه مع ((الغصون)). ففي ((الغرة الطالعة)) ذكر ابن سعيد الشهاب التلعفري محمد بن يوسف بن مسعود الشيباني، وكانت وفاته سنة 675هـ وفي ((الغصون)) ذكر تلعفريا اخر، هو الموفق مظفر بن محمد، وكانت وفاته سنة 602هـ.

إن ابن سعيد حين بدأ بالغصون اليانعة لم يمض فيه الى أخره، وقد يكون انتهى فيه الى سنة 652، وهي السنة التي احال اليها وهو يتكلم عن ابن التلمساني فيقول (ص34): "وهو شاعر تقف على ترجمته في سنة اثنتين وخمسين وستمائة. هذا ان احسنا الظن. ثم لما عاد الى المشرق راحلا بعد سنة 666هـ، عن له ان يضع للناصر الايوبي كتاباً -والشعر اوسع ميادينه- فذكر كتابه الذي خلفه غير كامل، وكان حلقة من حلقات، ومايريد ان يعنى نفسه بجديد، فأراد ان يصل ما انقطع واملى هذا العنوان الجديد: "الغرة الطالعة في فضلاء المائة السابعة"[١٥].

رحلته:

جاب ابن سعيد كثيراً من الأمصار والممالك سواء في المغرب او في المشرق، ويظهر إن سبب رحلته المشرقية ذهاب أمر الموحدين واجتياح قلعة بني سعيد، مما أدى

إلى هجرة نفر من أهل هذا البيت إلى المشرق[١٦].ففي سنة (638هـ/1240م) وصل إلى إلى تونس برفقة والده وعمل ابن سعيد كاتباً لوزير الموحدين أبا العلاء إدريس بن علي بن أبي العلاء ابن جامع، بسبب وقوع الفرقة والتغيير بين ابن سعيد وابن عمهُ أبا عبد الله بن الحسين الذي يعمل للموحدين استأذن الوزير يرسم الحج للرحيل إلى المشرق[١٧].

فنزل في الإسكندرية وهو بصحبة والده سنة (638هـ/1240م) وهو في سن التاسعة والعشرين، وترك والده في الإسكندرية ورحل إلى القاهرة، ثم عاد إليها فحضر وفاة والده (640هـ/1243م) فرجع إلى القاهرة فأقام بها أربع سنوات، ومنها غال ى حلب سنة (644هـ/1246م) في صحبة الصاحب الكبير القاضي كمال الدين عمر بن أبي جرادة المعروف بابن العديم*[١٨] ثم زار دمشق، فبغداد، ثم أوغل في بلاد المشرق فوصل إلى ارمينه، ثم رجع إلى الحجاز سنة (647هـ/1249م) ليؤدي فريضة الحج [١٩] ومن الحجاز توجه إلى تونس ليحظى بخدمة المستنصر الأول محمد بن يحيى الحفصي (ت675هـ) وبقى في تونس إلى سنة (666هـ/1267م)، ثم عاد إلى المشرق[٢٠].

(3) رحلاته

(3) - 1 - رحلته الاولى:

وصل ابن سعيد ووالده الى الاسكندرية سنة 639وكان سلطان مصر عندئذ الصالح الايوبي (637- 347). وفي الاسكندرية ترك ابن سعيد والده الذي كان على مايبدو قد انهك من طول السفر، ورحل الى القاهرة، مركز الحركة الثقافية الناشطة عندئذ ودار السلطة[٢١]، الا انه اضطر الى العودة الى الاسكندرية بسبب اشتداد المرض على ابيه فمرضه حتى توفي في شوال
سنة 640[٢٢] وعاد الابن اراجه الى القاهرة حيث كان له مطارحات ولقاءات مع كثير من شعرائها البارزين عندئذ.

وخلال هذه الإقامة القاهرية تمكن ابن سعيد من اعداد مادة الجزء الخاص بمصر من كتاب المغرب كما ان فترة اقامته هذه حفلت بشتى انواع الانفعالات مما اكسب شعره شيئاً من حرارة الشعور الصادق: فهو اشبيلية الجميلة التي لا تشبهها مدينة هنا ويتشوق، وهو يتعجب من طباع الناس، وهو يتألم من نفور الناس منه وهو يأسى لقيام الحواجز بينه وبين اداء فريضى الحج[٢٣].

وما لبث ابن سعيد ان تعرف الى الناصر واصبح من مجالسه الذين يتحدث اليهم في خلواته العلمية والشعرية ويداعبهم ويتبادل معهم النوادر [٢٤]. بل ان الناصر اولى موضوع تصنيفه ((للمغرب)) و ((المشرق)) اهتماماً خاصاً واشار عليه بالاضافة الى ذلك بعمل مؤلف شامل هو "المقتطف من ازاهر الطرف" وفتح امامه خزائنه العلمية الخاصة ووعده بمساعدته في الاطلاع على خزائن الموصل وبغداد [٢٥] و "تبعه من الدمتنير والخلع والتواقيع والارزاق ومالا يوصف"[٢٦].

ويظهر إن ابن سعيد انتهز فرصة انتقاله من حلب الى دمشق فزار في طريقه كلاً من حمص وحماه بحثاً عن الخزائن العلمية ومن اجل خلق صداقات ورؤية اجراء

جديدة فهو يذكر انه التقى بالملك الصالح نور الدين صاحب حمص الذي اقترح عليه ان يكتب له بعض الابيات على تفاحة عنبر اراد الصالح اهداءها لابن عمه الملك الصالح نجم الدين ايوب ملك الديار المصرية[٢٧]. وهذا يؤكد ان رحلته الى دمشق بدأت في سنة 647 اذ ان الصالح نجم الدين ايوب كان قد توفي تلك السنة.

ومن بغداد انحدر ابن سعيد مع فخر الدين الدامغاني "الى البصرة في دجلة، ورحلتي نعه تحتمل سفراً، زبدتها في هذا المكان انا لما وصلنا الى البصرة حللنا بين الابلة ونهر معقل وضرب المصاحب (الدامغاني) هناك خيمة وفيها يرتفع ويدور كالاهلة يرسم الجلوس للناس. وجاءه الوافدون من المسلمين والنصارى والمجوس والصابية فسنح لي القول فأنشدته ..." واورد بضعة أبيات[٢٨]. ومن المدن الفارسية التي مر بها ابن سعيد في رحلته الاولى هذه [٢٩] مدينة ارجان [٣٠] وبعد ذلك لا نلتقي بابن سعيد الا في الديار الحجازية حاجاً. وهكذا تمكن من الوصول الى مكة بعد حوالي خمسة عشر عاماً من مغادرته الاندلس قضاها في التعرف على ابرز رجالات المشرق في دنيا العلم والاب والسياسة وفي زيارة مراكزه الثقافية وفي الاطلاع على عدد كبير من المصادر والكتب المشرقية.ويظهر إن ابن سعيد ادى فريضة حجه سنة 651. يستنج من قوله: سألت اهل البحرين في سنة احدى وخمسين وستمائة حين لقيتهم بالمدينة النبوية عن البحرين. اذ يبدو انه ذهب لزيارة الحضرة النبوية في المدينة بعد ان حج في مكة. وهذا النص يدل على ان ابن سعيد اغتنم فرصة حجه ايضاً لتقييد الفوائد العلمية.

عودته إلى تونس

وعندما وصل ابن سعيد الى تونس بعد طول غيبة كان الترحيب به من اصدقائه القدامى حاراً وحاثاً على الإفادة، فهذا أبو العباس الليانى يرحب به:

- وفي ذلك الوقت كانت الامارة الحفصية قد توطدت وازدهرت وتولى حكمها بعد ابيه- ابو عبدالله المستنصر الذي ذاع صيته في حقلي السياسة والعلم بالنظر لاتساع نفوذه وتشجيعه للعلم والعلماء[٣١].

(3) - 2 - رحلته الثانية:

لا تسهب المصادر في ذكر هذه الرحلة الثانية، لكن هناك من الاشارات ما يكفي لتأكيدها. فالمقري ينقل عن كتاب ابن سعيد "عدة المتنجز وعقله المتوفز". انه ارتحل من تونس الى المشرق هذه المرة سنة 666هـ ويروي عنه اخباراً شائقة من حصيلة الرحلة الثانية... ودلالة اخرى على حصول هذه الرحلة تأتي من المصنفين المشارقة الذين توهموا انه توفي في اثنائها مما يدل على تأكدهم من وجوده في المشرق في تلك الفترة[٣٢]. والظاهر ان ابن سعيد بعد اقامة في تونس استغرقت اربعة عشر عاماً (652-666) قد شعر بنوع من الرقابة التي لم يعتد عليها وهو الذي قضى صباه سائحاً بين الاندلس والمغرب وقضى شبابه وجزءاً من كهولته جائلاً في تونس ومصر والشام والعراق والحجاز ولربما بقيت في نفسه امور منذ الرحلة الاولى لم يستطع اليها من

سبيل في ذلك الوقت من اطلاع على بعض المصادر ومشاهدة لبعض المدن والاقطار خاصة وان الفتن كانت مستمرة عنئذ بين الايوبين في الشام وبقايا العباسيين وامرائهم في بغداد ... بينما كان الزحف المغولي يكتسح كل قوة في طريقه .. وهو امر قد يكون من ضمن الاسباب الهامة التي عجلت برحيل ابن سعيد الى تونس سنة 652 رغم الحاح اصدقائه المشارقة [٣٣]. ولقد خلف ابن سعيد رواءه في المشرق اصدقاء اعزاء لم يعد يسمع عنهم شيئاً ... ويود لو عرف مصيرهم او لقبهم مرة أخرى. وهكذا واصل ابن سعيد سيره الى خراسان وربما جاز الى ما بعدها. والمصادر لا تسعفنا بذكر مراحل هذه الرحلة. وهناك عبارة في ترجمته بالقدح تقول: "وسار ما بين عبادان وقزوين" أي انه اخترق بلاد العجم من اقصى جنوبيها الغربي الى اقاصي اطرافها الشمالية، هذا اذا جاز استنتاج ذلك من تلك العبارة الغامضة. واذا صح ذلك فان هذه الجولة تمت في رحلته الثانية اذ تشير المصادر الى انه لم يتجاوز في رحلته الاولى مدينة ارجان في الجنوب الغربي من بلاد العجم كما تقدم، ومن الامور الجديرة بالالتفات في حياة ابن سعيد اشارة باحثين محدثين هما المستشرق هاملتون جب والدكتور زكي محمد حسن الى ان ابن سعيد في رحلته الثانية طلب الاجتماع بهولاكو التتري فاتح بغداد او انه اجتمع به فعلاً وان هولاكو استضافه عنده. [٣٤]

رجوعه الأخير إلى تونس ووفاته:

١. نقل المقري عن ابن الخطيب - اوثق من يمكن ان يؤرخ لابن سعيد بحكم القطر والمدينة والزمن - انه توفي بتونس في حدود سنة خمس وثمانين وستمئة[٣٥].
٢. وذكر ابن فرحون (800) ايضاً - ويبدو انه ينقل عن ابن الخطيب - انه توفي بتونس في السنة المذكورة[٣٦].
٣. وذكر المؤرخ المصري جلال الدين السيوطي (912) ما وراء ابن فرحون وابن الخطيب[٣٧].
٤. الا ان بعض المؤرخين المشارقة وعلى رأسهم ابن شاكر الكتبي [٣٨] (764) وابن تغري بردى[٣٩] ذهبوا الى ان ابن سعيد توفي سنة 673. وقد حدد ابن شاكر مكان الوفاة فقال انه دمشق وحدد ابن تغري بردى تاريخها باليوم والشهر والسنة فذكر انه توفي يوم السبت حادي عشر شعبان ثلاث وسبعين وستمئة. ولكن هذه الرواية تبدو ضعيفة اذا ما قورنت بالرواية الاولى من حيث قوة المصادر. كما ان هناك اشارة من مصنفات ابن سعيد نفسه قد تساعد على ترجيح الرواية الاولى. فالملاحظ ان كتاب (القدح المعلي) لابن سعيد يصل في ذكره لتاريخ الوفيات حتى سنة 681 وهو وان كان اهدي الى الامير ابي زكريا ابن المستنصر قبل توليه الحكم سنة 675 فان ذلك لايمنع المصنف من اضافة بعض المعلومات الجديدة اليه بعد ذلك [٤٠]. ومن المرجع ان ابن سعيد توفي بتونس سنة 685هـ.

(4) الجغرافية عند ابن سعيد:

١. مقدمة ابن سعيد لكتاب المغرب تتضمن جملاً من (الشهب الثاقبة).

نرى ابن سعيد في هذا الكتاب موضوعياً يعتمد على المقارنات الجغرافية والتاريخية والاجتماعية ويتجنب اطلاق الاحكام الذاتية التي لاتستند إلى أساس وهو لا يتردد في ذكر فضائل المشرق وفي تفضيله على المغرب في بعض الأمور، من ذلك إشارته إلى إن العمران متصل في الاراضي المشرقية من الشام الى العراق الى بلاد العجم بعكس المغرب الذي يغطي مساحته البحر " ولهذا كان المشرق أعظم عمارة من المغرب واكثر مدناً .. فوجب التسليم من المغاربة في هذه المزية" وهو عندما يقارن بين الاوضاع السياسية في المشرق والاندلس يرى ان الانظمة المالكة اكثر احتراماً وثباتاً في المشرق بينما الحكم في الاندلس يعتمد على ثورات قواد الجند مثل ابن الاحمر وابن هود (والمقارنة التي في ذهن ابن سعيد هي طبعاً بين استقرار مصر والشام في ظل الايوبيين وتمزق الاندلس بين زعمائها قبل سقوط قواعدها الكبرى) ويشير الى ان سرعة تغير الحكام الى اضاعة الجهد وتغلب العدو ويخلص من ذلك يقوله: " واهل المشرق اصوب رأياً منهم (المغاربة) في مراعاة نظام الملك، والمحافظة على نصابه، لئلا يدخل الخلل الذي يقضي باحتلال القواعد وفساد التربية وحل الاوضاع[٤١] وابن سعيد منصف للمشرق حتى في مفاخره التي لا تعتمد على حقائق مسلم بها، فنراه يشير الى تلك المفاخر ويتحفظ ازاها فمن ذلك: "ذكر ابن سعيد ان بعض الحكماء شبه الارض بجسد ادمي وعدد اعضاءه، وجعل الصين والهند رأسه والمغرب رجله .. وبهذا التشبيه للمشرق غاية الفخر وان سلمه اليهم المغاربةهنا بذكر ما قاله الحكماء ويرى فيه فخراً للشرق ولكن لان التشبيه غير قائم على حقيقة بينة وضع ابن سعيد تحفظه.

كتاب بسط الارض في الطول والعرض:

اهتم الغربيون بصورة خاصة بالناحية الجغرافية من مصنفات ابن سعيد وهي متمثلة بكتابي "فلك الارب" و"بسط الارض في الطول والعرض"، ويجمع الباحثون على ان ما كتبه ابن سعيد في الجغرافيا قائم بالدرجة الاولى على اساس كتاب "نزهة المشتاق" للادريسي حتى اعتبره البعض نسخة من هذا الكتاب، وفي رأي الدكتور مؤنس ان هذه اول مرة نجد فيها كتاب الادريسي في الاستعمال في محيط العلم العربي وقد وصل الى تونس اول ما وصل من بلاد الاسلام، وذلك بعد مرور قرن على زمن الادريسي "والبرهان الاكبر على اعتماد ابن سعيد على الشريف الادريسي في مادته الجغرافية هو كتابه (بسط الارض في الطول والعرض) الذي يسمى ايضاً بكتاب (جغرافيا في الاقاليم السبعة) الذي يعتبر من احسن ما الف العرب في الجغرافية" وبصدد هذا الكتاب يقول الدكتور مؤنس: "ان كتاب ابن سعيد هذا جغرافي صرف لا يصدر الا عن منقطع لهذا الفن.. وفي هذا المجال انتهج ابن سعيد نهج الادريسي على الرغم من انه كان النهج المتبع عند المغاربة لا يفصل بين الجغرافية والتاريخ... فقد كان ابن سعيد في الجغرافية رجلاً اصيلاً وذهناً جديراً بالاعجاب.. وهو دون شك من

اعاظم الاندلسيين الذين وفدوا على المشرق ومن ابعدهم اثراً فيه" [٤٢]. ويضيف الدكتور مؤنس قوله: "ومع ان ابن سعيد اعتمد على الادريسي اعتماداً رئيسياً ولكنه خالفه فهو لم يختصر نزهة المشتاق كما يظن بل اخذ هيكله العام ومنهجه في التقسيم ومفهومه للجغرافية ولهيئة الارض ووصفها بالنسبة لنظام الافلاك، ثم أنشأ كتابه المختصر على اساس ذلك كله، فنقل عن الادريسي كثيراً جداً ولكنه نقل من غيره كثيراً جداً ايضاً، وهذه النقول التي اضافها من غير الادريسي تزيد في قيمة كتاب بسط الارض كمصدر فريد لمعلومات ذات قيمة كبرى وخاصة فيما يتصل بأفريقية، لاننا لم نعثر الى الآن على بعض المراجع الهامة التي نقل عنها" ويرى الدكتور مؤنس ايضاً ان "علياً بن سعيد اعتمد على كتاب الخوارزمي اعتماداً اساسياً في تقديره لعروض البلدان والاماكن واطوالها على النحو الدقيق الذي نجده في جداول الخوارزمي للمدن والجبال والانهار والبحار مع طول كل منها وعرضه ثم اتبع نهج الادريسي في تقسيم الاقاليم ودون وصفاً مفصلاً لكل جزء من اجزاء الاقاليم فاذا وجد خلافاً بين ما يقوله الخوارزمي والادريسي اشار الى ذلك" ومن جملة ما سلم من الخارطات التي وضعها ابن سعيد، "صورة ديار العرب" و"صورة الجزيرة" و"صورة العراق" (انظر المرتسمات 62 و63 و64)[٤٣]. وفيما يتصل بتأثر ابن سعيد بالادريسي فيما كتبه في موضوع الجغرافيا، يقول كراتشكوفسكي: "اما نشاط ابن سعيد في محيط الجغرافيا فانه لا يتصل بالادب بقدر ما يتصل بالاتجاه الذي يمثله الادريسي، ويتضح ذلك من عنوان مصنفه (كتاب جغرافيا في الاقاليم السبعة)، وكأنه يشير بهذا الى المذهب الذي ينضوي تحت لوائه المؤلف، غير انه يجب ان نضيف الى هذا ان المشكلة المتعلقة بمسودات هذا الكتاب ومختصراته لا يمكن القول بانها قد حلت تماماً.. وعلى الرغم من الغموض الذي يحيط بمسودات الكتاب الا انه يمكن القول بان جغرافيا ابن سعيد تعتمد على الادريسي اعتماداً كبيراً في مادتها الاساسية وفي تبويبها فالاقاليم فيها مقسمة الى سبعة وكل واحد منها مجزأ بدوره الى عشرة اقسام... ويزيد ابن سعيد على الادريسي انه قد بين عروض واطوال جميع المواضع الماهولة بطريقة دقيقة يمكن معها الى حد كبير تخطيط مصور جغرافي متكامل. ومن المهم هنا ان ابن سعيد شارك الادريسي في تقسيم المعمور من الارض الى الاقاليم كالاحزمة العريضة تحيط بكرتها ولكنه اختلف معه في تقسيم عدد الاقاليم، فبدلاً من سبعة اقاليم عند الادريسي جاءت عند ابن سعيد تسعة، واحد جنوبي خط الاستواء وسبعة مسكونة شماله يليها اقليم ثامن شمال خط الاستواء لا يسكن لشدة برده، ثم يقسم كلاً من هذه الاقاليم الى عشرة اجزاء بادئاً من جزائر الخالدات ومنتهياً الى جزائر اليابان التي يسميها جزائر السيلي، وهذا المعمور يمتد عنده 180 درجة طولية، أي نصف محيط الارض، اما الارض فكرة يحيط بها الماء، وهذا نص كلامه قال [٤٤]: "الأرض كروية محيط بها الماء، هما واقفان بالمركز في قلب الافلاك، ودورها 360 درجة، وكل درجة ونصف 100 ميل، والميل 4000 ذراع".

"والمعمور منها طوله من الجزائر الخالدات التي بالبحر المحيط بالمغرب الى جزائر السيلي التي في البحر المحيط بالمشرق 180 درجة". "والظاهر منها مضرس لاستقرار البحار وسلوك الأنهار" "وعرض المعمور من اقصاه في الجنوب الى اقصاه

في الشمال 80 درجة، وما بعد ذلك في الجنوب لا يسكن لقوة حر الشمس في الحضيض الذي لها هناك، وما بعده في الشمال لا يسكن لقوة البرد والجمد" [٤٥].
ويستبان من كلام ابن سعيد انه اخذ بفكرة افراد اقليم خاص جنوبي خط الاستواء الى حد 11 درجة من درجات العرض وبتفصيل اجزائه العشرة من الرحالة الجغرافي ابن فاطمة، وهي الفكرة التي لم ياخذ بها الادريسي في كتابه "نزهة المشتاق" فيقول في الكلام على الجزء الرابع من هذا الاقليم المعمور خلف خط الاستواء: "فيه انتهى جبل القمر على المذهب البطلميوسي، حيث الطول 51 درجة و 500000000 دقيقة والعرض 11 درجة، وجعله البيهقي وابن فاطنة يتصل من هنالك بالجبل الممتد مع اول العمارة الى جبل الندامة.." اما ابن فاطمة هذا فهو ملاح عربي من اهل السودان الغربي لا نعلم عنه شيئاً يعتقد انه عاش في حوالي القرن الخامس الهجري، كانت له معلومات دقيقة باحوال افريقيا واهلها مما يلي الحزام الصحراوي جنوباً طاف في رحلاته بالساحل الغربي لافريقيا حتى وصل الى السودان والحبشة ثم توغل في الداخل حتى منابع النيل، كما طاف بالساحل الشرقي لافريقيا فبلغ سفالة الزنج وعرف جيداً مدغشقر، ويرى الكتور مؤنس ان ابن سعيد اخذ معلوماته عن الاقليمين الاول والثاني شمال خط الاستواء من ابن فاطمة[٤٦]. أما بالنسبة لبلاد الشام، فمن المرجح ان ابن سعيد قد افاد من مؤلفات الجغرافيين المسلمين السابقين مثل الادريسي وغيره بالاضافة الى المشاهدات الشخصية، التي أثرت بصماتها على رؤيته لبلاد الشام وان جاءت في صور مقتضبة. والواقع إننا لا يمكن ان نقبل القول بان ابن سعيد في "الجغرافيا" قد اعتمد الى حد كبير على الادريسي، لوجود اختلافات بين منهجي كل منهما ومن أمثلتها ثراء الإشارات التي يقدمها الادريسي عن بلاد الشام، اذا ما قورنت بما اورده ابن سعيد ، بالاضافة الى ان الادريسي يهتم بدرجة كبيرة بذكر المزارات الدينية المسيحية في فلسطين، بينما نجد ان ابن سعيد لا يعتني بها، ولا يرزها البتة[٤٧] بيد انه لم يستمر على ذلك المنهج، اذ انه عندما تناول عكا وصفها بانها "ركاب الفرنج ومجمع تجارتهم وحجاجهم" ومن الواضح انه اجمل بذلك التناول الخـاص بها، من حيث اهميتها التجارية، ومكانتها بوصفها ميناء للحج، مع ملاحظة ان ميناء يافا مثل هو الآخر ميناء يصل اليه الحجاج المسيحيون من اجل الوصل بعد ذلك الى المواضع المقدسة في فلسطين، مع ملاحظة ان اشارته بشان عكا تظل مختصرة للغاية، ولا تناسب مع مكانة تلك المدينة الهامة والحيوية والتي مثلت يوماً ما القلب التجاري للوجود الصليبي في بلاد الشام[٤٨] اما فيما يتصل بمدينة صور فنجد انه يشير الى حصانتها ومناعتها، وقد ذكر انها لا ترام من ناحية البر، كما ان الصليبيين اداروا البحر حولها، من اجل احكام حصانته، اما بيروت فقد قدم اشارة هامة عنها عندما قرر انها ميناء دمشق، وهذا يوضح كيف ان المدن الشامية الداخلية البرية اعمدت على مدن ساحلية من اجل تصريف منتجاتها وتجارتها، وعندما تناول يافا، فانه لم يقدم عنها الا القليل النادر، وذكر انها من الفرض المشهورة، وفي اشارته لغزة نجد انه لا يقدم الا عبارة ان بينها وبين البحر، اكوام من الرمال[٤٩]. ومن الواضح الجلى، ان اشارات ابن سعيد لمدن الساحل الشامي، اشارات محدودة ليست ذات ثقل، وتقل بكثير في اهميتها عما ورد بشأن نفس المنطقة

الهامة، لدى مؤلفات الجغرافيين المسلمين الذين قدموا الى بلاد الشام خلال ذلك العصر. أما النشاط الاقتصادي في بلاد الشام، والذي تعرض اليه ابن سعيد المغربي، فنجده من خلال زوايتين، الاولى الزراعة والثانيـة التجارة، اما الزراعة، فنجد انه يقرر اشتهار حارم بانتاج نوع جيد من الرمان يمتاز بكثرة المياه، اما معرة النعمان فنجد انه يقرر اشتهارها بزراعة الزيتون والتين والفستق وغيرها من المنتجات، وبالنسبة لحلب نجده يقرر انها تنتج القطن، وكذلك الفستق الكبير، ومن الواضح اهمية اشارته بشان القطن، على اعتبار انه يدخل في صناعة المنسوجات [٥٠]. أما التجارة فنجد انه يشير الى ان القطن [*] الذي ينتج في حلب يدخل في نطاق تجارة البحر المتوسط فيصل الى سبتة بالمغرب الاقصى، ويبدو ان حلب اعتمدت على ميناء السويدية، او غيره من الموانئ على الساحل الشرقي للبحر المتوسط من اجل تصريف منتجاتها، مع ملاحظة ان عالم البحر المتوسط في عصر الحروب الصليبية كان بمثابة منطقة تجارية واحدة ومشتركة بين قسميه الشرقي والغربي، ولعل مقولة ابن سعيد بشان قطن حلب خير شاهد على ذلك[٥١]. ومن جهة اخرى، نجده عندما يذكر مدينة الباب الواقعة في وادي بطنان، شمال شرق حلب، نجد انه يذكر دورها في حركة التجارة ويقر ان بها نشاط تجاري للبزازين أي تجار الاقمشة وكذلك العطارين، وتجدر الاشارة الى ان انواع العطارة قد تزايدت في بلاد الشام بشكل واضح في ذلك العصر، ففي القرلان السابع على زيارة ابن سعيد المغربي لبلاد الشام ونعني به القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي، عدد ابن القلانسي نحو ثلاثمائة وثمانين صنفاً من اصناف العطارة لدى احد العطارين بمدينة دمشق، حقيقة ان اسواق الباب، لا يمكن ان تقارن باسواق دمشق المزدهرة تجارياً، لكن من المنطقي تصور ان الازدهار التجاري قد اصاب اسواق تلك المدينة وان كان بصورة اقل بالطبع [٥٢]. أما إذا ما اتجهنا الى وجهة اخرى، ونعني بها مصادر المياه فنجد ان ابن سعيد قد اهتم بها، واورد عدداً من انهار بلاد الشام ،بل وتتبع مسار بعضها، ومن امثلة ذلك نهر الاردن، وقد اشار الى انه يخرج من بحيرة طبرية، ويمر بالغور الى ان يصب في البحيرة الميتة، اما نهر قويق، فقد ذكر انه ياتي من جهة عزاز، اما نهر العاصي فانه يقرر انه ينزل من جهة بعلبك، ويعني بذلك انه ينبع من هناك، ويمر على شمالي حمص، وحماة، وشيزر، ثم يسير الى الشرق من انطاكية، وشماليها الى ان يصل الى البحر المتوسط[٥٣].

ومن الطبيعي ان نلاحظ اهتمام ابن سعيد بمسألة المياه خاصة الشام بحكم أهميتها لمظاهر الحياة المتعددة، غير انه لم يظهر تباين اقاليم بلاد الشام في الري بمياه الامطار والعيون والينابيع ومياه الانهار الامر الذي وجدناه لدى الجغرافيين المسلمين السابقين مثل الادريسي وياقوت والقزويني. أما المزارات الدينية والعلاجية، فقد اشار اليها ابن سعيد بايجاز، ومن امثلة النوع الاول، انه تناول بالحديث وجود جعفر الطيار في مؤتة، وكذلك قبور اصحابه، ويبدو انه لم يعترض على ذلك، ولم يشك فيه، اما في غزة فنجده يقرر ان هناك من يزعم بان جد النبي (ﷺ) مدفون بها، ومن الواضح عدم اقتناعه بذلك بدليل اشارته للامر على اساس انه زعم ولا يدخل في نطاق الحقائق

المؤكدة، وان لم تتوافر لدى ابن سعيد المغربي ذات الشجاعة التي كانت لدى ياقوت الحموي[٥٤]. أما الخريطة المذهبية والعقائدية لبلاد الشام في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي، فنجد ان ابن سعيد قد القى الضوء على العناصر الشيعية، ولاسيما الإسماعيلية وقد أشار إلى انه يتصل بجبل الاسماعيلية، وعلى نفس مذهبهم العقائدي جبل السماق وتكثر به العناصر الاسماعيلية، وقد عبر عن تلك الكثافة السكانية لاصحاب ذلك المذهب بقوله "هو ملآن بالاسماعيلية"، ومن ناحية اخرى، عندما تعرض لمدينة سلمية، لم يفته يذكر تاريخها ودورها في بداية الدعوة الاسماعيلية، فقد ذكر انه خرج منها عبدالله المهدي فأقام دعتهم في بلاد المغرب ثم توالى امرهم الى ان ازال دولتهم السلطان الناصر صلاح الدين الايوبي[٥٥]. والى جانب الاسماعيلية، نجد ان ابن سعيد المغربي قد سلط الضوء على النصيرية، وعمل على تحديد موقعهم الجغرافي. اذ انه اشار الى جبل النصيرية الذي يظهر قائماً على جبلة واللاذقية. وقد اوضح انهم ينسبون الى نصير مولى الامام علي بن ابي طالب (عليه السلام) كما انه تعرض لبعض عقائدهم الباطلة مثل تصورهم ان الشمس وقفت له كما وقفت ليوشع بن نون، وانهم غالوا في تأليهه. وقد قدم اشارة هامة لتوزيعهم الجغرافي، عندما اوضح انهم يوجدون ايضاً في جزيرة عانا، من طرف الجزيرة التي تلى العراق على حد تحديده أي ان وجودهم الجغرافي تجاوز الشام، واشتمل على مناطق في العراق أيضا [٥٦] وكان لهذا الكتاب من تصانيف ابن سعيد اثر كبير في الكتب الجغرافية التي ألفت بعده فقد نقل عنه ابو الفدا كما نقل عنه كثير من الجغرافيين والمؤرخين وكتاب الموسوعات، وثمة نص في صبح الاعشى للقلقشندي قد يستنبط منه ان ابن سعيد الف "معجماً" في تقويم البلدان لم يصل الينا شيء منه، قال القلقشندي، عند الكلام على نيل مصر: "وقد ذكر الحكماء انه ينحدر من جبل القمر، اما بفتح القاف والميم كما هو المشهور، بضم القاف وسكون الميم كما نقله في"تقويم البلدان" عن ضبط ياقوت في "المشترك" وابن سعيد في"معجمه". فهو يشير هنا الى ان "ابوالفدا" نقل في كتابه "تقويم البلدان" ضبط "القمر" بضم القاف وسكون الميم عن ياقوت في كتابه "المشترك وضعاً والمفترق صقعاً" وعن ابن سعيد في كتابه "المعجم". ومهما يكن من الامر فان القلقشندي اعتمد على ابن سعيد في كثير من البيانات الجغرافية التي دونها في صبح الاعشى ولاسيما ما يختص بمواقع البلاد وخطوط طولها وعرضها[٥٧].

وقد سجل ابن سعيد اخبار وحوادث رحلاته فيما الف من كتب التاريخ،التي ما يزال الكثير منها مخطوطاً حتى الان، ولاسيما كتابه "المغرب في حلى المغرب" الذي كان قد بدأه ابوه وجده من قبله، على ان كتاب "المغرب في حلى المغرب" قد ضاع معظمه ولم يبق منه سوى اجزاء بسيطة تضمنت تراجم لبعض الشخصيات البارزة في الاندلس ابتداء من العصر الاموي حتى نهاية عصر الموحدين، وقد نشر العالم الاسباني جارثيا جومث جزءاً من هذا الكتاب تناول فيه لكلام عن بعض شعراء الاندلس من القرن العاشر الى الثالث عشر بعنوان (رايات المبرزين)، وكان ابن سعيد قد اهداها الى والي القاهرة موسى بن يغمور في عهد السلطان الصالح نجم الدين ايوب وابنه تورنشاة وقد نشره زكي محمد حسن وشوقي ضيف وسيده اسماعيل كاشف بالقاهرة سنة 1953،

كما قام الدكتور شوقي ضيف بنشر بعض اجزاء من (المغرب في حلى المغرب)، تقع في جزئين من زخائر العرب بنفس العنوان (المغرب في حلى المغرب) [٥٨]. وقد قسم ابن سعيد العالم الى اقاليم في كتابه "بسط الارض في الطول والعرض" وقد ادخل ابن سعيد مصر في نطاق المغرب الاسلامي فخصها بنصيب كبير في تاريخه، من ذلك ما نقله المقري في كتابه"نفح الطيب" في وصف القاهرة والفسطاط، اذ يقول المقري: "قال ابن سعيد: ولما استقرت بالقاهرة تشوقت الى معاينة الفسطاط، فسار معي اليها احد اصحاب القرية فرأيت عند باب زويلة من الحمير المعدة لركوب من يسير الى الفسطاط حملة عظيمة لا عهد لي بمثلها، فركب منها حماراً واشار الي ان اركب حماراً اخر فانفت من ذلك على عادة من اختلفته في بلاد المغرب فاخبرني انه غير معيب على اعيان مصر، وعاينت الفقهاء واصحاب البزة والشارة الظاهرة يركبونها فركبت"[٥٩].ومما يذكر لابن سعيد بالفضل هو حرصه على نقل الكثير من الرحلات والاسفار التي قام بها الرحالة المشهور ابن فاطمة الذي قام برحلات بحرية طويلة في غرب افريقية جنوبي مراكش، وقد جاء في اخباره، ان السفينة التي كان يستقلها قد غرقت عند الرأس الابيض (ساحل الذهب الان)، بعد ان توغل في كشف الساحل الافريقي الغربي الى ابعد مما كان معروفاً عند الاوربيين حينذاك، والواقع ان شيئاً من آثار ابن فاطمة لم يصل الينا ما خلا الذي نقله عنه ابن سعيد واشار اليه في اكثر من موضع[٦٠].لقد قسم ابن سعيد العالم الى سبعة اقاليم، ويحدثنا عن الاقليم الرابع نقلاً عن ابن فاطمة فيقول: "قال ابن فاطمة، هو عندهم اعدل الاقاليم واحسنها حيواناً ونباتاً والكلام في تفضيله يطول وهو اوسط الاقاليم السبعة وخير الامور اوسطها وسكانه بين البياض والحمرة والصفرة، ولماكان الاقليم الثالث في جنوبيه والاقليم الخامس في شماليه حكم لهما بقرب الاعتدال ولاحت فيهما مشابه من الرابع" [٦١]. "ويقع فيه من جزائر السعادات الاربع التي رسمت ويصعد البحر المحيط في ساحله الى حيث الطول (6) درجات و (30) دقيقة فيقع هنالك مازنغان وهي فرضة مشهورة تحمل منها القمح الى سبته وغيرها وبينها وبين اسفي (50) ميلاً ولها طرف يدخل في البحر (12) ميلاً وفي شمالها يصب نهر ام ربيع تدخله المراكب المتوسطة، وعلى جنوبيها مدينة ازمور على ميلين من البحر وسكانها اكثرهم صنهاجة وهي قاعدة لولاتها وبينها وبين طرف امازيغان (12) ميلاً وفي شمالي هذا النهر على (50) ميلاً من فرض تامسنا المشهورة بالفتح ومعظم سكانها برغواطة"، ويستطرد في الوصف فيقول: "وفي شمالها (60) ميلاً مصب نهرسلا وحلقة صعب على مدخل المراكب، وعلى جانبه الجنوبي عن المصب رباط الفتح، وفي مقابلتها على شمالي النهر مدينة سلا، وفي شمالها مصب نهر المعمورة وهو من انهار المغرب المخصوص بالحوت الطيب المعروف عندهم بالشايل الذي يكون فيه اختلاط الماء المالح بالحلو [٦٢]. ثم ينتقل ابن سعيد الى وصف الاقليم الثالث فيقول: "واول ما يلقاك منه جزيرة جربة في شرقي قابس بينها وبين البر مجاز ضيق وبين هذا المجاز وقابس مرحلة[٦٣].

ويصف مدينة طبرق وبرقة فيقول: "وهي كانت قاعدة البلاد في ايام الروم وكانت البلاد تعرف بانطابلس فسمتها العرب برقة لما راتها كثيرة الحجارة المختلطة

بالرمل، ولطبرق مرسي قل ان يكون له نظير على هذا البحر ما للريح عليه سبيل كانه حوض منقور في حجر وبقايا اسوار هذه المدينة تدل على قدميها وفي وجهتها المجرى المعروف بالطنان وفي شرقي ذلك من القصور المشهورة عند العرب، وفي شرقيها العقبة الكبيرة، وهي اول حد الديار المصرية"[٦٤].وينتقل بنا الى بلاد الروم فيتحدث عن ملطية فيقول: "ملطية بلدة من بلاد الروم ذات اشجار وفواكه وانهار ويحتف بها جبال كثيرة الجوز وجميل الثمار مباحة لا مالك بها، وهي قاعدة الثغور وهي شمالي الجبل الدائر الذي سيس في غربية، وهي بلدة مسورة في بسيط والجبال تحف بها من بعد، ولها نهر صغير عليه بساتين كثيرة يسقيها ويمر بسور البلد، وهي شديدة البرد وهي في الجنوب عن سيواس، ولملطية ايضاً قني تدخل البلد وتجري في دوره وسككه والجبال محيطة بها على بعد منها". وكان جديراً بابن سعيد ان يحرص على التحدث عن مراكش فيقول: "مراكش من المغرب الاقصى محدثة بناها يوسف بن تاشفين في ارض صحراوية ويتحدث عند تسجيله لاحداث رحلية الى الجزيرة والعراق والموصل عن الموصل فيقول (ان مدينة الموصل كانت فيها صنايع جمة لاسيما أواني النحاس المطعم (المكفت) التي كان يحمل فيها الى الملوك [٦٥].ولعل مايزيد من قيمة مؤلفات ابن سعيد المغربي انه اعتمد على مصادر جغرافية عديدة لم تصل الينا من ابرزها رحلة ابن فاطمة الذي اخذ معلوماته منها عن بلاد السودان وفي هذا الصدد يقول المستشرق كراتشكوفسكي ويؤكده حسين مؤنس: "وهذا الحكم عيلة يصدق بدوره على معرفته بسواحل افريقية الغربية والشرقية التي لم يزرها بنفسه بل استقى مادته عنها من ملاح عربي لا نعلم عنه شيئاً يدعى ابن فاطمة ولعله عاش في القرن السابق على ذلك (أي القرن 6هـ/12م) وقد ابحر هذا الملاح على طول الساحل الغربي لافريقيا حتى بلغ مصب نهر السنغال الذي كان يعتبر في ذلك الوقت متصلاً عن طريق نهر النيجر بحوض النيل الذي كان الجغرافيون ينتمون اليه في ذلك العهد منطقة بحيرة تشاد" [٦٦].

ولهذا فان معلومات ابن سعيد المغربي عن بلاد السودان تتصف بالجدية والاصالة وهي التي سمحت له ان يحدد بدقة بالغة مواقع المدن والجبال ومجاري الانهار والبحيرات في المنطقة كما ان اعتماده على اسفار ابن فاطمة قد اتاحت له مادة اصلية لم يعرفها من سبقه وهذه المادة تعيننا كثيراً في رسم بعض جوانب هذا البحث، وقد امدتني مادة ابن سعيد المغربي بمعلومات متعلقة بموقع وحدود بلاد السودان مع تقسيماتها الجغرافية ومواردها المائية، كما قدم مادة مهمة عن الاحوال الادارية في ممالك اقليم السودان الاوسط والغربي ولاسيما عن مملكة كانم الواقعة الى الشمال الشرقي من بحيرة تشاد والتي انتقل حكامها الى اقليم برثو الواقع الى الغرب منها، كما اشار الى الاحوال الادارية في مملكة مالي واهم الاقسام الادارية التابعة لها كما تضمنت مؤلفات ابن سعيد المغربي معلومات هامة فيما يتعلق بشكل خاص بالفعل الاقتصادي كالزراعة وطرق الري والمحاصيل الزراعية والثروة الحيوانية والموارد المعدنية والحرف المتواجدة فيه مع ذكر النشاط التجاري وطرق المواصلات[٦٧].

النتائـج

- نشأ ابن سعيد المغربي في بيئة علمية فأبوه موسى مهتما بالعلم واصطحب ابنه في رحلاته وفي مجالس العلم فكان فطناً ورعاً متفقهاً.
- ابن سعيد رحالة إلى جانب كونه شاعرا وأديبا ومؤرخا وجغرافيا، عاش في فترتين بين القرن السادس والسابع وقد شملت رحلاته مناطق واسعة من الأرض بدأً من بلاد الأندلس إلى أرمينيا فكان كثير الترحال وطالباً للعلم.
- مؤلف غزير ومتنوع في كتاباته له اكثر من ثلاثين مؤلفاً في مختلف العلوم والأدب والشعر والتاريخ والجغرافية واشهر كتبه (المغرب في حلى المغرب) و (بسط الارض في طولها والعرض) وهو كتاب جغرافي فيه تفصيلات دقيقة عن المناطق التي زارها وجغرافيتها وتقسيمات اقاليمها وعادات سكانها وعلمهم وعلمائهم.
- أهم ما يتميز به ابن سعيد هو علمه الواسع والتفصيلات التي يشرح ويوضح من خلالها تفسيراته العلمية في كل العلوم التي كتب بها فهو في كتابه (بسط الارض) او ما يسمى بالجغرافية دقيقاً حتى بتعبيراته وفي وصفه للاقاليم والمناطق سواء للمشرق العربي او المناطق الاخرى التي زارها وقد وضع خرائط، ويقال انه تأثر بالادريسي وبطليموس في مؤلفاته الجغرافية ونقل عن ابن فاطمة أيضا الرحالة الأندلسي الذي سبقه لكن ، فقدت المخطوطات التي كتبها ولا يعرف منها شيئاً، كما نقل عنه ابو الفداء.

ويؤكد محمد مؤنس وكراتشوفسكي ان ابن سعيد انتفع من كتب البلدانيين والمسالكيين فيما يتصل بالمواضع والطرق والابعاد فقد انتفع بالادريسي عن بلاد اوربا وبالبكري عن الشمال الافريقي وابن فاطمة عن افريقيا وبالبيروني عن الهند وايران وبالمسعودي عن بحار الهند والصين وببطليموس عن نواحي اخرى.

Abstract

Ibn sa'eed is a poet, historian, traveler and geographical from Andalusia .He is Ali Ibn-Mousa Bin Mohammed Abdul Malik Bin Sa'eed born in around (605,610) A.H in yahsub fort or what is called Ibn Sa'eed's fort. He studied language, literature and poetry by Abi Ali Al-Shalubeen and Abi Hasen Al-Dabaj and Ibn Asfoor .He has more than thirty works in various sciences. Ibn Sa'eed was chosen for writing two books about geography which were the best of his works .the importance of his works lies in his description of the reality in an accurate way for being a traveler staying in the places which heads to

for a long time .During which he gets to know the place well, asks a lot and knows the history of that place then he starts writing about it.

Moreover, the scientific concern of the research is based on the fact of being as a source for the students of geography and enriched the libraries with his works.

These works are still scripts kept in the library of Alascoreal in Spain which contains a geographical legacy which has never been studied or translated yet .The concerns of history professors were a lot more than of the geographical which proves that Ibn Sa'eed was a comprehensive scientist who wrote in different fields of geography, history ,literature ,novel and jurisprudence . The most important of his works is (Bast Al-Ardh) or what is so called (Kitab Al-Jughraphia).

هوامش البحث ومصادره

(١) الانصاري، د.محمد جابر، التفاعل الثقافي بين المغرب والمشرق في اثار ابن سعيد المغربي ورحلاته المشرقية وتحولات عصرة، دار الغرب الاسلامي ،ط1، بيروت، لبنان، 1992، ص2.

(*) قلعة يحصب او تسمى قلعة بني سعيد وكانت تعرف قبل نسبتها اليهم باسم قلعة اسطلير نسبة الى عين كانت موجودة بهذا الاسم، احمد ابن محمد التلمساني، نفح الطيب في غصن الاندلس الرطيب، تحقيق د. احسان عباس ، ج2، ص330.

(٢) جالنشيا، انخل، تأريخ الفكر الاندلسي، تحقيق حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ، 1955، ص244.

(٣) محمد عبد الغني حسن، ابن سعيد المغربي (المؤرخ الرحالة الاديب)، مكتبة الانجلو المصرية، 1969، ص2.

(٤) برهان الدين ابن علي ابن محمد بن فرحون، الديباج المذهب في معرفة اعيان علماء المذهب، الطبعة الاولى 1351هـ، ج2، ص209.

(٥) المغربية ،موسوعة ثقافة، كتاب بن سعيد ،المغرب في صلى المغرب، العدد 7054 - الاثنين 12 أيار، 2008.، ص3.

(٦) ابن فرحون ،برهان الدين ابن علي بن محمد، الديباج المذهب في معرفة اعيان المذهب، الطبعة الاولى ،1351هـ ،ج2، ص209، الموسوعة العربية الميسرة، مج1، ص18.

(*) وهذا الكتاب له مختصر يسمى (اختصار القدح المعلي في تاريخ المحلي) لابن سعيد، علي بن موسى، اختصره: ابو عبدالله محمد بن عبدالله بن خليل، تحقيق: ابراهيم الابياري، قرىء على: د. حسين طه / طبع مطابع الاميرية، (القاهرة - 1959).

(٧) ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج1، ص م 18 وما بعدها: حسن، ابن سعيد المغربي، ص145 وما بعده ذكر ان مؤلفاته وصلت الى (30) مؤلف؛ سوسه، الشريف الادريسي في الجغرافيا العربية، ص437 ذكر له (30) مؤلف.

(٨) المقري، احمد بن محمد التلمساني، نضح الطيب في غصن الاندلس الرطيب، تحقيق د. احسان عباس ،دار صادر،بيروت، 2004، ص271.

(٩) القاموس الاسلامي، وضع احمد عطية الله، المجلد الثالث، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ، 1970، ص365.
(١٠) محمد شاكر الكتبي، وفات الوفيات، المجلد الثاني، بولاق، مصر، 1283هـ، ج2.
(١١) مصطفى الشهابي، الجغرافيون العرب، دار المعارف، مصر، 1962، ص83.
(١٢) المغرب في حلى المغرب، تقديم د. زكي محمد حسن، د. شوقي ضيف و د. سيدة كاشف، ج 1، القسم الخاص بمصر، مطبعة جامعة فؤاد الاول، 1953، ص م16
(١٣) اختصار القدح المعلى في التاريخ المحلى، لابن سعيد ابي الحسن علي بن موسى، تحقيق ابراهيم الابياري، القاهرة، الهيئة العامة لشؤون المطابع الاميرية، 1959، ص2.
(١٤) الخطط المقريزية، المسماة بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار يختص باقليم مصر والنيل وذكر القاهرة، تاليف الشيخ الامام علامة الانام تقي الدين احمد بن علي بن عبد القادر بن محمد المعروف بالمقريزي، المجلد الثالث منشورات دار العرفان، لبنان، سنة 1959، ص94.
(١٥) الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة تحقيق: ابراهيم الابياري دار المعارف، مصر 1928 ج1، المقدمة.
(١٦) مؤنس، حسين، تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الاندلس، مطبعة معهد الدراسات الاسلامية، مدريد 1969، ص356
(*) المقري، نفح الطيب، ج 2، ص274 وما بعده يتصرف؛ مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيين، ص172؛ زيادة الجغرافية والرحلات، ص169.
(١٧) ابن العديم: لم يكن قطب اهل العلم وزعيمهم فحسب بل كان مقرباً من السلطان الناصر يوسف صاحب الشام / ينظر، ابن النديم، مجلة / ج / ص .
(١٨) ابن سعيد، علي بن موسى، المغرب في حلى المغرب، حققه وعلق عليه: د. شوقي ضيف، دار المعارف، (مصر - 1955)، ج2، ص172.
(١٩) ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، تحقيق: زكي محمد، ج1، ص162.
(٢٠) ابن سعيد، علي بن موسى، الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة، تحقيق: ابراهيم الابياري، دار المعارف، (مصر - 1928)، ج1، مقدمة.
(٢١) النفح، 93/3.
(٢٢) المغرب 172/2.
(٢٣) النفح، المصدر السابق، 78/3- 81.
(٢٤) المصدر نفسه ج 93/3.
(٢٥) النفح، مصدر سابق، 39/3- 40.
(٢٦) المصدر نفسه 40/3.
(٢٧) المصدر نفسه، ص55/3.
(٢٨) المصدر نفسه 55.
(٢٩) المصدر نفسه 40/3.
(٣٠) ورد عنها في معجم البلدان "عامة العجم يسمونها ارغان .. مدينة كبيرة ... بينها وبين البحر مرحلة، وبينها وبين شيراز ستون فرسخاً، وبينها وبين سوق الاهواز فرسخاً، راجع معجم البلدان لياقوت، ج أ ص142- 144.
(٣١) النفح، مصدر سابق، 130/3.
(٣٢) الكتبي، محمد شاكر، مصدر سابق، 212/2.
(٣٣) النفح، المصدر سابق، 130/3.
(٣٤) انظر مقدمة المغرب (قسم مصر) ص17.
(٣٥) النفح، مصدر سابق 3 /41.
(٣٦) ابن فرحون، مصدر سابق، 208.
(٣٧) السيوطي ،جلال الدين عبد الرحمن، حسن المحاظرة في اخبار مصر والقاهرة، مطبعة الموسوعات، مصر، بدون تاريخ،ج1 . 266/1.
(٣٨) فوات الوفيات 212/2.

(٣٩) ابن تغري بردى المنهل الصافي، ورقة 453 (مخطوطة دار الكتب)
(٤٠) انظر مقدمة (القدح) التي كتبها الاستاذ ابراهيم الابياري محقق الكتاب.
(٤١) النفح، مصدر سابق، 200/1 - 201.
(٤٢) د. احمد سوسة، الشريف الادريسي في الجغرافية العربية مكتبة صبري، بغداد، 1974، ص438.
(٤٣) المصدر نفسه، ص438.
(٤٤) د. احمد سوسة ،مصدر سابق، ص440
(٤٥) المصدر نفسه، ص441 - 442.
(٤٦) د. احمد سوسة، مصدر سابق، ص443.
(٤٧) د. محمد مؤنس واحمد عوض، الجغرافيون والرحالة المسلمون في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية الطبعة الاولى، 1995، ص185.
(٤٨) المصدر نفسه، ص186.
(٤٩) المصدر نفسه، ص186.
(٥٠) د. محمد مؤنس واحمد عوض، مصدر سابق، ص187.
(*) وعن زراعة القطن في حلب انظر: ابن البيطار، الجامع لمفردات الادوية والاغذية، ج 4، ط. القاهرة، 1291هـ، ص11، 24، المصدر نفسه، ص187.
(٥١) المصدر نفسه، ص187.
(٥٢) د. محمد مؤنس واحمد عوض، المصدر السابق، ص188.
(٥٣) د. محمد مؤنس واحمد عوض، المصدر السابق، ص188.
(٥٤) المصدر نفسه، 189
(٥٥) المصدر نفسه، ص189.
(٥٦) د. محمد مؤنس واحمد عوض، مصدر سابق، ص189.
(٥٧) د. زكي محمد حسن وآخرون، المغرب في حلى المغرب (ابن سعيد، الجزء الاول) 1953، ص212، ص م 21.
(٥٨) احمد رمضان احمد، الرحلة والرحالة المسلمون، دار البيان العربي للطباعة والنشر، ص190.
(٥٩) المصدر نفسه، ص190 - 191.
(٦٠) المصدر نفسه، ص192.
(٦١) المصدر نفسه، ص193.
(٦٢) احمد رمضان احمد، مصدر سابق، ص193.
(٦٣) المصدر نفسه، ص194.
(٦٤) المصدر نفسه، ص194.
(٦٥) المصدر نفسه، ص195.
(٦٦) نوال تركي موسى، بلاد السودان في كتابات الرحالة والجغرافيين، دراسة في الاحوال الادارية والاقتصادية، رسالة دكتوراه في التاريخ مقدمة الى كلية الآداب جامعة الكوفة، 1988، ص11 - 12.
(٦٧) المصدر نفسه، ص12

الانترنت :

المغربية ،موسوعة ثقافة، كتاب بن سعيد ،المغرب في صلى المغرب، العدد 7054 - الاثنين 12 أيار، 2008.

الاطاريح :

موسى، نوال تركي، بلاد السودان في كتابات الرحالة والجغرافيين، دراسة في الأحوال الإدارية والاقتصادية، رسالة دكتوراه في التاريخ، مقدمة الى كلية الآداب جامعة الكوفة، 1988.